الموضوعية في الكتابات التاريخية حول الجزائر بين المدرسة الكلاسيكية والمدرسة الحديثة

أ. رشيد باقة.

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة.

تمهيد:

كثيرا ما يتداول بين أوساط المهتمين بالدراسات التاريخية في الجزائر مقولة مفادها أن المؤرخين الغربيين وبخاصة منهم الفرنسيين الذين كتبوا عن تاريخ الجزائر، قد تعمدوا تحريف الحقائق وتزييف الوقائع لأغراض أيديولوجية معينة، بل ذهب أصحاب هذا الإدعاء إلى أبعد من ذلك عندما اتهموا أولئك المؤرخين بالانتماء إلى "مدرسة تاريخية كولونيالية" أي غير علمية، ودعوا لأجل التصدي لمخططات هذه المدرسة وتسفيه آرائها إلى إنشاء مدرسة تاريخية جزائرية(وطنية)[1]، تتولى إعادة كتابة تاريخ الجزائر وفق نظرة جديدة مغايرة.

هذه التهمة ثقيلة وخطيرة لأن الأخذ بها يعني ببساطة أن التاريخ ليس علما ولا هو فن، طالما أنه باستطاعة أي فريق أو مدرسة الاجتهاد في إحياء مجد البلد الذي ينتمي إليه و الحضارة التي يعتقدها لب قوميته وميزة أمته، ويضرب صفحا عن مفاخر الأقوام الذين لا تربطه بهم أية علاقة انتماء أو صلة قربى، ومن ثمة فإن ما يبذله العلماء من جهود واجتهادات لاستخلاص المنهج العلمي الموضوعي الذي يتوجب الأخذ به في الصناعة التاريخية و الحرص على تدريسه للطلبة في الجامعات يعد ضربا من العبث ومضيعة للوقت.

إن القول بإمكانية تزوير الحقائق التاريخية أو إعادة كتابة وقائع التاريخ حسب الحال التي يرتضيها هذا الفريق أو ذاك، قد يبدو أمرا هينا لدى بعض الناس ممن لا يفهمون قيمة التاريخ في حياة البشر و الأمم،[2] لكن بالنسبة للباحثين المختصين فالأمر يعتبر في غاية الخطورة لأنه يتعلق بمصداقية التاريخ كعلم وموضوعية الكتابة التاريخية.

التاريخ والعلم:

إن مفهوم مصطلح "التاريخ *HISTOIRE*"، حسب التعريف الأكاديمي يعني "علم دراسة تطور ماضي البشر"[3] وبمعنى أدق: "السعي لإدراك ماضي البشر"، والإدراك يعني الفهم الصحيح لمجرى الوقائع كما حدثت في الزمان والمكان دون زيغ أو ضلال، لا كما نتوهم أو نتخيل أو نتصور أنها جرت على وجه التقريب، ولا يتسنى لعالم التاريخ إدراك الماضي البشري وإحيائه من غير الالتزام بتقنيات البحث التاريخي أو "الميتودولوجيا *METHODOLOGIE*" حسب المفهوم الغربي،

التي من مزاياها التجرد من الميول و الأهواء و التقيد بالصدق والأمانة والموضوعية، و لعل الألماني "ليوبولد فون رانكه، *Leopold Von Ranke*" الذي يوصف في الغرب بأبي التاريخ الحديث، كان يعي جيدا قيمة العلمية و الموضوعية في الدراسات التاريخية عندما تمنى أن يطفئ جميع رغباته بل نفسه ذاتها ليصبح مرآة صافية تنعكس عليها صورة الحوادث التي حدثت في الماضي دون أن يكون له تأثير فيها[4] وتبعه في هذا المذهب، أصحاب المدرسة الحديثة الذين جعلوا من الموضوعية المطلقة والتجرد التام من أهواء الذات في مقدمة المنهج الذي يجب على المؤرخ إتباعه أثناء قيامه بالصناعة التاريخية."إن المؤرخ ينبغي أن ينحي جانبا تحيزه ليترك للقارئ محاولة الفهم على قدر استطاعته و يكون موضوعيا أو على الأقل منصفا ليكون مدركا لالتزامه وواجبه واختصاصاته"، يؤكد المؤرخ الأمريكي "برنارد لويس."[5]

فالتاريخ إذن من هذا الوجه، علم مثل سائر العلوم، منساب في مدرستها مرتبط بها متفاعل وإياها متحقق بمنهجها، يقول العلامة "فوستيل دي كولاج": "إن التاريخ علم إنه لا يتخيل، إنه يرى فقط، وهو كغيره من العلوم قوامه الكشف عن حقيقة الوقائع يقوم بتحليلها ودرس التقارب فيما بينها و الإشارة إلى الواصلة بينها، والمؤرخ شبيه الكيميائي، هذا يجد وقائعه في الاختبارات الدقيقة التي يجريها في المخابر، وذاك يبحث عن الوصول إليها بملاحظاته الدقيقة أيضا" ومختصرا يقول:"إن الطريقة التاريخية هي مثلها في العلوم الأخرى من علوم الملاحظة"[6] وقد أصبح هذا المذهب مسلما به الآن في غالب الأوساط العلمية، فهذا العالم الإنجليزي الكبير"بيوري *J.B BURY*" يثمن مكانة التاريخ العلمية في جملة مختصرة دقيقة

وشاملة:"التاريخ علم ليس أكثر و لا اقل *HISTORY IS A SCIENCE NO MORE NO LESS*"[7]

فمادة التاريخ حسب هذا التعريف، هي حوادث البشر في الماضي، وهذه الحوادث لا تستوحى من الخيال، إنما تكتب من خلال المصادر والشواهد الدالة عليها، ووفق المنهج العلمي الذي يضبط هذه العلمية، فلا تاريخ بغير وثائق، والكتابة التاريخية لم تأخذ صفة العلمية إلا منذ أن بدأ المؤرخون يشككون في الروايات المنقولة بالسماع أو الكتابة: "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ" قال أحد المؤرخين.

إن التاريخ هو معيار التمييز بين الرواية الصحيحة والمزيفة، بين المصادر القيمة والمصادر المغشوشة المفبركة بين الدراسة الموضوعية والرؤية الذاتية، فكيف إذن يسمح المؤرخون الفرنسيون أو غيرهم لأنفسهم الخروج عن هذه القواعد العامة، عند تعاملهم مع تاريخ الجزائر؟ وهل الأمر بسيط إلى هذه الدرجة ! ?.

إن مداخلتي في هذه الندوة، تدور حول إشكالية التزوير في كتابة التاريخ، وقد عنونتها، كالتالي: "الموضوعية في الكتابات التاريخية حول الجزائر بين المدرسة الكلاسيكية و المدرسة الحديثة"، ودعمت البحث بأمثلة من تاريخ الجزائر في العهود القديمة و الوسيطة، التي وقع الخلاف حولها بين المؤرخين الجزائريين والفرنسيين، ولتوضيح هذه الإشكالية، رأيت ضرورة تقديم شرح موجز لمصطلح "الكتابات" الذي ورد بالعنوان.

استعملت مصطلح "الكتابة *ECRITURE*" و ليس"الدراسة *ETUDE*" لأن الكتابة في المجال التاريخي أوسع و أشمل من الدراسة، فالدراسة التاريخية تأتي في

مرحلة متأخرة، أي بعد أن تتم عملية التدوين الأولى، أو الكتابة الأولى أو ما تسمى بالمصطلح العلمي "مرحلة التأريخ *HISTORIOGRAPHIE*"[8] التي تعني رصد الحادثة التاريخية وتسجيل وقائعها في هنيهتها الحاضرة، إما وثيقة أو رواية أو أبنية أو نقوش أو نقود و غيرها، فالدراسة، إذا تأتي كمرحلة لاحقة للكشف والتحقيق في تلك المصادر والآثار والروايات المادية والأدبية المدونة، بينما الكتابة في المجال التاريخي فهي تشمل المرحلتين معا، مرحلة التدوين الأولى (التأريخ) ومرحلة الدراسة التاريخية التي تأتي لاحقا، فالدراسة التاريخية تنتهي دائما إلى إعادة بناء حوادث الماضي وكتابة فصولها من جديد لكن بشيء من الدقة و الموضوعية.

هذا التوضيح في مفهوم الكتابة التاريخية يجعلنا نصل إلى الاستنتاج التالي: طالما أن الكتابة التاريخية تتم على مرحلتين، فالتحريف والتزييف الذي ربما قد يلحق ببعض الحقائق لا يكون حتما وليد مرحلة الدراسة، بل يحتمل جدا أن يبدأ التزوير مع مرحلة التدوين الأولى، وبالتالي فإن معايير الصدق والنزاهة والدقة والأمانة والموضوعية التي يطلب من المؤرخ التحلي بها، لا يجب فهمها على أنها تصلح فقط عندما نريد دراسة الماضي و إعادة كتابة وقائعه. إن هذه المعايير الأساسية يجب أن يراعى العمل بها منذ نشأة الحادثة وبداية التأريخ لها، فالذين يؤرخون لحادثة تاريخية لحظة وقوعها وهم مجردون من صفات الأمانة و الصدق والنزاهة والموضوعية سيجدون أنفسهم لا محالة، منجذبين إلى الخيال تتنازعهم أهواء النفس الأمارة بالسوء، فينغمسون في تضخيم الوقائع و تزييف الحقائق، "يكتبون ما يسمعون وينقلون ما يجدون من غير تصحيح للرواية ولا تمحيص لها بالفكر والدراية، كأنهم يروون تاريخ مجموع عجائب تحير الأفكار لا ديوان حقائق تهدي

المتأخر سبل الاعتبار" حسب تعبير المؤرخ مبارك الميلي[9] فحقائق الماضي في غالب الأحيان لا تصل إلينا في صورتها الواقعية، إنما تنعكس دائما من خلال الصورة التي رسمها المدون، لذلك كان أصحاب المدرسة الوضعية (Positivistes) يصرون على عدم أخذ المصادر على علاتها، وقالوا بضرورة فحص وتمحيص كل منها للتبيّن من قيمتها قبل الركون إليها في استخراج أخبار الماضي " تحقق أولا من الوقائع ثم استخلص نتائجك منها"[10]

ومنطقيا يمكن القول، أنه إذا وقع تزييف أو تحريف أو تشويه في المصادر أثناء مرحلة الكتابة الأولى"*HISTORIOGRAPHIE*" وجاء مؤرخ فيما بعد ودرس تلك المصادر دون أن يتفطن إلى مواطن التحريف بها، ثم أعاد بناء وقائع الحادثة وفق ما أظهرته تلك المصادر، فليس من العدل تحميل هذا المؤرخ مسؤولية ما وقع من تحريف و إلصاق التهمة به، " كل مصادر التاريخ مدانة متهمة حتى تتحقق صحتها". هذه قاعدة عامة يجب على أي مؤرخ التسليم بها قبل ولوجه ميدان البحث التاريخي. ووفق هذه القاعدة العامة يجب التعامل مع مصادر تاريخ الجزائر.

و إذا ما رجعنا إلى القضايا التي حصل الاختلاف حولها بين بعض المؤرخين الجزائريين و الفرنسيين، وجدنا أن الأمر ينحصر في سببين لا غير، إما أن المؤرخين المعاصرين وقعوا في سحر مؤلفات القدماء، فصدقوا ما كتبوه من روايات وأساطير، وإما مجرد تضارب في التأويل أو التفسير لبعض الحوادث، وهذا أمر طبيعي بحكم الاختلاف في انتماء الطرفين وتكوينهما وثقافتهما ومعتقداتهما ؛ وهذه أمثلة على ذلك.

1-الحقبة القديمة:

أولى المؤرخون الفرنسيون عناية كبيرة بكتابة تاريخ الجزائر في القديم ودفعهم إلى ذلك ارتباط أحداث منطقة شمال إفريقيا، بتاريخ الحضارة الرومانية والبيزنطية من جهة، وكذلك توفر مادة تاريخية معتبرة في شكل آثار ونقوش ونقود ونصوص مدونة باللغتين الإغريقية واللاتينية، لذلك لم يجد هؤلاء الفرنسيين مشقة في إعادة كتابة تاريخ تلك الحقبة وفك طلاسمها، ومن أشهر المؤرخين الذين عنوا بهذه الفترة وقدموا دراسات مستفيضة حولها، (ستيفان جزال GSEL . ST)[11]، (ف، قوتييه F. Gautier)[12] (جبريال كامبس G. Camps)،[13] (شارل أندري جوليان Ch . A Julien)[14]، وغيرهم كثير.

غير أن ما يلفت الانتباه بخصوص الأعمال التي قدمها هؤلاء المؤرخون الفرنسيون، أنها لم تلق التصديق والثناء لدى بعض الجزائريين المهتمين بالدراسات التاريخية فأمطروها بسيل من الانتقادات والتهم وشككوا في قيمتها التاريخية ومصداقيتها العلمية وتأتي في طليعة التهم التي أصر الجزائريون على إلصاقها بالمؤرخين الفرنسيين، تهمة التحيز و عدم الموضوعية، خصوصا فيما يتعلق بمسألة نكران الهوية الامازيغية لمنطقة شمال إفريقيا، وتغييب دور الأهالي (البربر) في المساهمة في الحضارات التي قامت على ضفاف المتوسط، والإصرار على تقديمهم في صورة قبائل متشرذمة متبربرة خاضعة دوما للسيادة الأجنبية.[15]

لا يوجد أدنى شك في أن هذه الصورة السلبية عن أجدادنا البربر التي اجتهدت بعض الدراسات الحديثة على إظهارها وتضخيمها لا تعكس الحقيقة،

وتثير في نفس الوقت لدى أبناء المنطقة إحساسا بالإهانة و الامتعاض، إلا أن هـذا الأمر لا يجب أن يدفع المؤرخين في بلدان المغرب العربي إلى التسرع في توجيه التهم لمؤرخي المدرسة الغربية الحديثة، لأن مسئوليتهم في هذه المسألة لا تتعدى في الواقع، عملية نقل، ربما بشيء من الترويج والتضخيم، صورة متمثلة قائمة بالفعـل، عـن المصادر الإغريقية و الرومانية.

إن المسؤول الأول عن تشويه تاريخ البربر في شمال إفريقيا، وتاريخ شعوب أخرى معاصرة في جهات عديدة، هم مؤرخوا اليونان و الرومان، وفي طليعتـهم، هيرودوتس، وسالوست، وتاسيت، فقد اعتاد مؤرخوا هاتين الأمتين تدوين أحداث شعوبهما مضخمة صاخبة مفعمة بالبطولات، بطولات الآلهة و بطـولات البشـر، فرووا الخرافات وأنشدوا الملاحم و أظهروا الانتصارات و لم يلتزموا الواقـع كمـا حدث فعلا، كما بالغوا في إهمال مجمل التاريخ البشري، وبخاصة تاريخ الشـعوب التي كانت تعيش خارج دائرة حضارتهما، فنعتوهم بالبرابرة وانكروا علـيهم أدنى مساهمة في الحضارة الإنسانية. لقد لخص مؤرخـوا اليونـان والرومـان تـاريخ وحضارة الشعوب المجاورة لهم في كلمة واحدة هي (*BARBARUS*)، البرابرة، أي المتوحشون المتخلفون.[16] كما بلغ الترفع باليونان والرومان أيضا أن تطاولوا علـى الفينيقيين لأنهم كانوا ينافسونهم تجاريا وسياسيا في حوض المتوسط لدرجة أنه لمـا انتصر الرومان على الفينيقيين في الحرب البونيقية الثالثة سنة 146 ق.م حملتـهم الكراهية والبغضاء على هدم عاصمتهم قرطاج وتخريبها كلية ولعنـوا مكانهـا، ثم تكالبوا على نسخ تاريخ الفينيقيين ومسخه وازدراء حضارتهم والانتقـاص مـن قيمتها وطمس لغتها(البونيقية).[17] حتى أنه لما تقرر فيما بعد، إحياء مدينة قرطـاج

على عهد يوليوس سيزار سنة 46 ق.م ، فقد روعي إزالة كل سمة أو طابع بونيقي من معالمها.[18] وهكذا عندما جاء العرب الفاتحين إلى إفريقيا في القرن السابع الميلادي، لم يجدوا فيها أي أثر لإخوانهم الفينيقيين الذين سبقوهم إلى هذه المنطقة وعمروها بألف وخمسمائة سنة قبل مجيئهم.[19] تلك كانت سنة الخلق دائما، فعندما تنتهي حرب ما إلى سحق أحد الأطراف وتزول حضارته لا يبقى إلا التاريخ الذي يكتبه الغزاة المنتصرون على هواهم، ومن الطبيعي أن يهيمن على هذا التاريخ مبرراتهم وأمجادهم. يقول الفيلسوف هيراكليت: "الحرب هي أم جميع الأشياء فهي تصنع الآلهة كما تصنع العبيد"[20].وبمعنى آخر أن الحرب هي الأساس الذي بنيت عليه جميع الفوارق بين البشر. ألم يكن شعار الرومان دائما "الويل للمغلوب".[21]

2- الفترة الوسيطة:

تعد مرحلة العصر الوسيط في تاريخ بلاد المغرب من أكثر المراحل التي وقع بشأنها تضارب في الآراء واختلاف في وجهات النظر بين مؤرخي الغرب الأوربي ومؤرخي المغرب الإسلامي، ومما زاد من اتساع دائرة الخلاف بين الفريقين، التحولات الجذرية التي غيرت مسار تاريخ شمال إفريقية بأسرها، خلال تلك المرحلة، ترتب عنها خروج المنطقة من دائرة الحضارة الإغريقو رومانية وانضوائها تحت لواء حضارة جديدة، هي الحضارة العربية الإسلامية.

وتتفق أكثر الآراء في الغرب الأوربي على أن منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، ظلت منذ فجر التاريخ حتى مطلع القرن السابع الميلادي، تشكل وحدة حضارية، لغتها واحدة اللاتينية، ومعتقدها واحد المسيحية وعملتها واحدة

النومسما البيزنطية، فجاء الفتح الإسلامي للمنطقة منذ القرن السابع، فمزق تلك الوحدة الحضارية الكلاسيكية عندما خرجت الشام ومصر وبلاد المغرب من دائرتها وانصهرت في بوتقة واحدة سرعان ما شكلت حضارة جديدة لغتها العربية ودينها الإسلام وعملتها الدينار[22]

ولقد جاء اهتمام المؤرخين في الغرب بأحداث الشمال الإفريقي في الفترة الوسيطة، لسببين:

أولا: معرفة الظروف التي أحاطت بانهزام الحضارة الغربية في هذه المنطقة وتراجعها أمام حضارة الإسلام، وذلك بهدف استخلاص الدروس التي قد تفيدهم في تثبيت أقدامهم بها وقد نجحوا في السيطرة عليها من جديد.

ثانيا: البحث عن نقاط ضعف، أو عن وقائع مشبوهة في تاريخ الفتح الإسلامي بمنطقة شمال إفريقيا، لاستغلالها للدعاية وتشويه صورة الإسلام بهدف تمهيد الطريق لإلحاق المنطقة من جديد بركب الحضارة الغربية خاصة وأنها أصبحت خاضعة سياسيا، وبقي دمجها حضاري عن طريق مسخ شخصيتها.

ومن القضايا الخاصة بمرحلة التاريخ الإسلامي لبلاد المغرب التي وقع حولها تباين في المواقف والطروحات بين المؤرخين الغربيين والمؤرخين المغاربة، قضية الفتح الإسلامي، وما أحاط بها من أحداث خطيرة وغامضة، ثم قضية الثورات البربرية التي كانت بلاد المغرب قاطبة مسرحا لها خلال القرن الثاني للهجرة، والتي ترتبت عنها تحولات سياسية عجلت بانفصال المنطقة عن الخلافة الإسلامية في المشرق.

قضية الفتح:

تركز الخلاف بين الفريقين، حول هذه القضية، في تباين نظرة كل فريق إلى طبيعة التوسع الإسلامي في شمال إفريقيا، ففي حين يعتبره المؤرخون العرب والمسلمون عموما فتحا مبينا جاء لتحرير سكان المنطقة من السيطرة الرومانية وإعادة ربطهم بأصولهم العربية المشرقية[23]، وأن الفتح الإسلامي قد حمل معه قيما ومفاهيم أخلاقية جديدة عن الخير والعدل والمساواة، ما جعل أهالي المنطقة من البربر يستقبلون الفاتحين عن طيبة خاطر ويدخلون في دين الله الإسلام طواعية. فإن مؤرخي الغرب بدون استثناء، يرون عكس ذلك، ويعتبرون التوسع الإسلامي غزوا عربيا "Conquête Arabe"، انتزع الأرض الإفريقية من أصحابها بالقوة والعنف، ويستدلون على رأيهم، بالمقاومة الطويلة التي جابهت بها قبائل البربر الغزاة العرب لفترة تصل إلى قرابة قرن من الزمن، وهي مقاومة لم يواجه العرب المسلمون مثيلا لها في جميع الأقطار التي احتلوها. لقد كان "أقل من أربعة ألف رجل كافيا في معركة واحدة للانتهاء من أمر مصر القبطية"، يقول المؤرخ شارل أندري جوليان[24] بينما تطلب غزو إفريقيا وإخضاعها خمسة وسبعون سنة، وتعاقبت عليها جيوش عديدة، وكان البربر في كل مرة يقاومون ويرتدون حتى بلغ عدد ردتهم عن الإسلام "اثنتي عشر مرة في ظرف سبعين عام"[25]. وقد ركز المؤرخون الغربيون لتبرير قناعتهم فيما ذهبوا إليه بخصوص هذه المسألة، على إظهار وتضخيم حروب كسيلة، زعيم قبيلة أوربه ومقاومة الكاهنة أميرة قبيلة جراوة الأوراسية.

ب- ثورة الخوارج:

تعتبر ثورة الخوارج التي انطلقت شرارتها الأولى سنة 122 هـ بعمالة طنجة بالمغرب الأقصى، ثم انتشر لهيبها بعد ذلك ليعم كامل جهات المغرب الأوسط والأدنى من القضايا الجوهرية التي تضاربت بشأنها الآراء، وتباينت حولها المواقف بين مؤرخي الغرب و المؤرخين العرب، لدرجة أن كل طرف أخذ يشكك في نزاهة رأي الآخر، ويتهمه بالتحيز والمغالطة، ولكي يسهل علينا فهم وجهة نظر الطرفين وما اختلفا حوله من نقاط، رأينا ضرورة استعادة أحداث ثورة البربر باختصار إلى الأذهان.

في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105-125 هـ)، قاد أحد زعماء البربر بالمغرب الأقصى، ويدعى ميسرة المطغري سنة 122 هـ ثورة شعبية ضد الحكم العربي، قتل فيها والي طنجة(*)، ووالي السوس(**)، و لم تلبث الثورة أن اشتغل لهيبها ليشمل جهات عديدة، فاجتمعت الجيوش العربية بالمغرب الأوسط لمواجهة الثائرين من البربر، ولكن العرب انهزموا في معركة الأشراف[26]. وعندما سمع الخليفة هشام نبأ الهزيمة التي لحقت بالجيوش العربية غضب غضبة عربية وسير جيشا إلى إفريقيا لتأديب البربر، لكن الثوار هزموا جيش الخليفة هشام مما جعل الثورة تنتشر حتى عمت ديار المغرب من أقصاها إلى أدناها، وظلت أرض البربر من جراء ذلك بين المد والجزر تتقاذفها الأحداث حتى انفصلت أجزاءها سياسيا عن الخلافة الإسلامية بالمشرق.

هذا باختصار ما يتعلق بأحداث الثورة، أما بخصوص التباين في وجهات النظر حولها، فيجب الإشارة في البداية إلى مسألة غاية في الأهمية، هي أن حوادث ثورة الخوارج البربر الانفصالية، لم تشكل نقطة خلاف بين مؤرخي الغرب

والمؤرخين العرب فحسب، بل شكلت أيضا تباينا جوهريا في الطروحات بين مؤرخي المدرسة العربية نفسها.

فلقد تناول كثير من المؤرخين العرب، سواء منهم مؤرخي الفترة الوسيطة، أو الذين ينتمون إلى الفترة الحديثة و المعاصرة إحداث ثورة الخوارج ببلاد المغرب بكثير من التحفظ و الانحياز أحيانا، وكثير من الإسهاب و التفصيل أحيانا أخرى من دون الخوض في العلل و الأهداف.

ولا يحتاج القارئ إلى شيء من العبقرية، وهو يتتبع أحداث ثورة البربر في المصادر العربية ليكتشف، دون عناء تباين الاتجاهات واختلاف التحليلات بين هذه المصادر العربية، حسب أصولها واتجاهاتها المذهبية.

فالمصادر العربية ذات الأصول المشرقية، حاولت إخفاء الدوافع المباشرة للثورة حتى لا تورط الخلافة فتتهم بالتقصير في سياستها تجاه الأمصار، واكتفت بتفسير أحداث الثورة على أنها فتنة خارجية وتطاول من لدن الشعوبية على الجيش العربي وخروج عن الخلافة، لخص ابن عبد الحكم، وهو أقدم من أرخ من المشارقة لتلك الأحداث، بالقول: "وانتفضت البربر على عبيد الله بن الحبحاب بطنجة فقتلوا عامله عمر بن عبد الله المرادي، وكان من تولى ذلك ميسرة البربري وهو الذي قام بأمر البربر وادعى الخلافة..."[27].

أما المصادر العربية ذات الأصول المغربية، فقد تناولت أحداث الثورة بشيء من التفصيل و الاعتدال وحرصت على إبراز أسبابها ودوافعها المباشرة وإظهارها في شكل انتفاضة شعبية ضد ظلم وتعسف بعض الولاة العرب، كتب ابن عذارى المراكشي بخصوص هذا الأمر قائلا: "ثم أن عمر بن عبد الله المرادي

عامل طنجة وما ولاها، أساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد"[28]. ثم يضيف بشيء من التوضيح مبرزا دوافع الثورة، "وكان السبب في ثورة البربر وقيام ميسرة" أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته لما ذكرنا وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عاملهم فيبعثون لهم البربريات السنيات، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب منّاهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة، فحينئذ عدت البرابر على عاملهم فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب"[29]

و لم يقتصر الخلاف، حول هذه المسألة بين المؤرخين العرب المشارقة منهم والمغاربة، بل بلغت حدة تفاقمه بصورة أوضح، عند المؤرخين المتمذهبين، وبخاصة منهم أنصار المذهب السني و المذهب الخارجي، فهذا ابن خلدون، رغم انتمائه المغاربي نجده، ينظر إلى الثورة من زاوية مذهبية سنية فيصفها بأنها فتنة دينية وبدعة خارجية، "... ونفشت هذه البدعة، وأعقدها رؤوس النفاق من العرب، وجراثيم الفتنة من البربر ذريعة إلى الانتزاء على الأمر فاختلفوا في كل جهة يلبسون الحق بالباطل، ووشجت بينهم عروق في غرائسها تم تطاول البربر إلى الفتك بأمراء العرب..."[30] أما أنصار المذهب الخارجي، فقد اعتبروا الثورة شرعية لا تتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، إنها انتفاضة على حكومة بني أمية التي عاملت

البربر بإذلال كبير، يقول أحد كبار ومؤرخي الإباضية: " استأسد الجند بطرابلس واستذلوا البربر".[31]

ومن المنطقي، والحال هكذا من تضارب في الآراء وعدم الاتفاق في الطروحات بين مختلف المصادر العربية و الإسلامية التي تشكل المنهل الوحيد للتأريخ حول تلك الحوادث، أن يقف المؤرخون الغربيون موقفا حذرا من تلك المصادر ويسعون إلى استغلال مساحات الغموض التي أظهرها قصور في التحليل مقصود أحيانا من طرف مؤلفيها، فراحوا يبحثون عن أدق التفاصيل بين ثنايا تلك الروايات الإسلامية المتضاربة في محاولة لإيجاد شواهد ومعالم تساعد على إعادة بناء صيرورة الأحداث ومن ثمة الاجتهاد في فهم عللها ودوافعها.

وما يجب الإشارة إليه بخصوص أحداث الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وما صاحبها من قلاقل وثورات، أنها ظلت لفترة طويلة نسيا منسيا، و لم تدون في حينها لا من طرف مؤرخين مسلمين ولا من طرف أجانب، كما لم يتم العثور حتى الآن على شواهد تدل على تلك الحقبة لا في شكل نقوش ولا نقود أو غيرها، وأن أقرب النصوص التي أرخت لهذه الحوادث تعود إلى ما كتبه الإخباريون العرب بعد عهود متأخرة من حدوثها[32]، إن أقرب رواية وصلتنا كاملة عن تلك الأحداث هي رواية "ابن عبد الحكم" الذي عاش بعدها بأكثر من قرن (توفي سنة 257 هـ/ 871 م).[33]

لهذا السبب التزمت المدرسة الغربية الحذر الشديد في تعاملها مع الروايات العربية المتأخرة، وفضلت في بعض الأحيان التوجه إلى استقراء الواقع في محاولة لاستكشاف علة الأحداث وتفهم القوى العاملة في تسييرها. لقد فسر مؤرخو

"المدرسة الفرنسية" ثورات البربر في العصور الوسطى، وهي كثيرة "بلغت ثلاثمائة وخمسة وسبعون حربا" في مدة لا تتجاوز أربعين سنة،[34] على أنها حركات شعبية قامت على أساس التناقض بين فئة اجتماعية بروليتارية بربرية وفئة بورجوازية عربية حاكمة[35]، وهم بهذا الرأي، وإن اختلفوا مع مؤرخي "المدرسة الجزائرية الحديثة"، التي تصر على رفض ربط ثورات البربر بالأسباب السياسية و الاقتصادية وترجع منشئها "إلى ما كان عليه البربر من خلق الفوضى وكراهية السلطة كيفما كان عدلها"[36]، وذلك تصديقا لمقولة الخلفية عمر بن الخطاب: "إفريقيا المفرقة لقلوب أهلها إشارة إلى ما فيها كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد"[37] إلا أنهم أي (المؤرخون الفرنسيون) فيما ذهبوا إليه، لم يختلقوا رواية كاذبة من عندهم، إنما وظفوا عناصر من الواقع كانت قد لمحت لها بعض المصادر العربية، يقول ابن خلدون: "...واتصل أمر ولا يتهم (أي العرب)، وساءت سيرتهم في البربر ونقموا عليهم أحوالهم وما كانوا يطالبونهم من الوصائف البربريات و الأفرية العسلية الألوان وأنواع طرف المغرب...فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم، وامتعض لذلك ميسرة زعيم مطغرة وحمل البرابرة على الفتك "بعمر بن عبد الله"، عامل طنجة فقتلوه سنة 122 هـ واضطرم المغرب نارا، وانتفض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد".[38]

و الواقع، أن هذا التعليل الذي اعتمده المؤرخون الفرنسيون في تفسير ثورة البربر على العرب في العصور الوسطى، يطابق الرؤية نفسها التي نظروا بها إلى ثورات البربر في العصور القديمة ضد الرومان أبناء عرقهم وأهل ملتهم، حيث اعتبروا حروب يوغرطة وتكفاريناس، وانتفاضة الدوناتوسيين حركات قومية

واجتماعية للإطاحة بالإقطاعية الرومانية التي استحوذت على الأراضي الخصبة في شمال إفريقيا، فقد جاء في المراجع أن الثائر تاكفاريناس أرسل سنة 21م وفدا إلى روما يعرض على الإمبراطور كشرط لتوقيف الحرب إرجاع الأراضي إلى الأهالي، أما بخصوص الثورة التي قامت بها بروليتاريا الأرياف، أو ما تسمى بحركة "الدوارين circum cellas"[39] وهي حركة ثورية شعبية انبثقت عن الحركة الدوناتوسية مع مطلع القرن الرابع الميلادي تضم في صفوفها الفئات الكادحة من الفلاحيين المعدمين الأحرار فيقول بشأنها المؤرخ شارل اندري جوليان "وكان السبب الأصلي لتلك الثورة شدة بؤس الكادحين الفلاحين الذين لم تأثر فيهم الحضارة الرومانية تأثيرا بذكر، ولقد جعلتهم الإمبراطورية لقمة سائغة للطبقة الأرستقراطية الرومانية أو المتأثرة بالرومان التي لا هم لها إلا امتصاص دم الأهالي..."[40].

الخاتمة:

و إذ نسوق هذه الأمثلة فلكي نبيّن أن استعمال الأنماط التعليلية لدى المؤرخين المحترفين عملية عادية يراد بها تجاوز الاكتفاء بسرد الأحداث كما هي ليصلوا إلى تحديد الأسباب الفاعلة وربط كل تفسير بالظروف التي واكبته. و يخطئ من يعتقد أن عمل المؤرخ ليس شيئا سوى التحقيق والتلخيص والترتيب، إن المؤرخين المرموقين يتجاوزون وصف مكتشفات الحفريات وتحقيق النقوش والرسائل والأشعار والأخبار، بل يحاولون ربط بعضها ببعض ووضع كل حادثة في إطارها العام، يستطيع القارئ بمقتضاه أن يميّز بين الحدث السابق والحدث اللاحق،

بين السبب والنتيجة. فالمؤرخ لا يقدم نظريات مطلقة و لا يصدر أحكاما قرآنية إنما يستخلص تفسيرات حسب فهمه لمضمون الوثيقة، وعندما يناقض الباحثون بعضهم بعضا، لا ينبغي التسرع في الحكم بالقول أن هذا الرأي صحيح و ذاك فاسد، إنما ينظر إلى الأمر من باب الاختلاف في التأويل والتفسير لا غير، إننا نخطئ عندما نحاول فرض تعليل معيّن على التاريخ أو نعمل على حشر الحوادث لتدخل في دائرة واحدة مغلقة، فمصادر التاريخ مرصعة بالفجوات، وغالبا ما يجد الباحث نفسه أمام هذا السكوت والغموض الذي تخفيه المصادر والنصوص مدفوعا إلى البحث عن أنماط تعليلية وتأويلات فلسفية من خارج إطار التاريخ بناء على قناعات أو معتقدات دينية أو فلسفية[1] وبالتالي تتفاوت الأحكام والتأويلات حول حادثة معينة بين مؤرخ وآخر، وهذا الاختلاف والتفاوت في الأحكام لا يعد عقبة في إعادة بناء الواقعة التاريخية، إنما يشكل عنصرا إضافيا في التباين في التعليلات والتفسيرات الذي يظهر كل واحد منها نصيب من الحقيقة أو جزء من بناء يكمل بعضه بعضا، فالبناء التاريخي يتشكل من أكبر عدد ممكن من الحقائق المقبولة التي يتوصل إليها الباحثون من خلال دراسة الوثائق والنقوش، أو من خلال ما يتوصلون إليه من استنتاجات منطقية وهو أشبه ما يكون بالحجارة المتفرقة التي تحتاج إلى جمع ورصف وترتيب ليكون منها بناء كاملا، أو أقرب ما يكون إلى الكمال.

الهوامش:

[1] أصدر اتحاد المؤرخين الجزائريين عددا خاصا سنة 1998 بعنوان (المدرسة التاريخية الجزائرية)، شمل بحوث كلها تصب في هذا الاتجاه.

[2] جاء في مقدمة ابن خلدون في فضل علم التاريخ: "أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم و الأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدنيا و الدين.....، تحقيق دوريش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط2، سنة 1996، ص 160".

[3] - DICTIONNAIRE DE LA LANGUE FRANCAISE T.1.

[4] الموسوعة العربية العالمية، المجلد السادس، ط 2، المملكة العربية السعودية 1999، ص 19.

[5] عبد المالك التميمي: الموضوعية و الذاتية في الكتابة التاريخية المعاصرة، مجلة علم الفكر، العدد4، المجلد29 ،2001 ، ص78

[6] جس هورس: قيمة التاريخ، مترجم، بيروت منشورات عويدات، 1986، ص65.

[7] إدوارد كار: ما هو التاريخ، ترجمة ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1980، ص62 .

[8] - Historiographie: Art, travail de l'historiographe

Historiographe: chroniqueur, écrivain, Auteur chargé officiellement d'écrire l'histoire de son temps (càd) au moment dc l'événement.

DICTIONNAIRE DE LA LANGUE FRANCAISE T.1.

[9] تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ش و ن ت ، 1976م، ص17.

[10] إدزارد كار، المرجع السابق، ص 7

[11] - Historie de l'Afrique du nord, 8 vol,1913

[12] - Le passé de l'Afrique du nord,1937.

[13] - La civilisation préhistorique de L'Afrique du nord et du sahara.

[14] - Histoire de L'Afrique du nord, 2T,1978.

[15] راجع بهذا الشأن كتابات أساتذة التاريخ القديم في جامعة الجزائر منهم: محمد البشير شنيتي، محمد الهادي حارش و أحمد سليماني.

[16] - Marcel Benabou :Quelques paradoxes sur L'Afrique romaine, son histoire et ses historiens. Actes du 2e congrès international d'études des cultures de la Méditerranée occidentale II SNED, ALGER, 1978 pp.139-143.

[17] مبارك الميلي: المرجع السابق، ص160 .

[18] تاريخ الحضارات العام، ج II، منشورات عويدات، بيروت، ط 4، 1998، ص66.

[19] تاريخ الحضارات العام، مرجع سابق، ص66 .

[20] الحروب والحضارات، إصدار المعهد الفرنسي لعلم الحرب، ترجمة أحمد عبد الكريم، دمشق، سنة 1984، ص 37،

[21] المرجع نفسه.

[22] أول من قال بهذه النظرية هو المؤرخ البلجيكي (هنري بيرين) في كتابه " محمد وشارلمان" للمزيد راجع: -H. pirenne : Mohamed Et Charlemagne, Paris, 1937

[23] أغلب المصادر العربية، ترجع أصل البربر ونسبهم إلى الشرق إلى افريقش وهو قائد يمني.

[24] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج II، ص 16.

[25] ابن خلدون العبر، مج 3، ص 10.

* عمر بن هبد الله المرادي.

** إسماعيل بن عبيد الله.

[26] ابن عبد الحكيم: فتوح إفريقيا والأندلس، دار الكتاب اللبناني، 1963، ص 95.

[27] المصدر نفسه، ص 90.

[28] ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغـرب، ج I، تحقيـق س. كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ج 1، ص 52.

[29] المرجع نفسه، ص52.

[30] ابن خلدون، العبر، مج6، ص ص (220-221).

[31] لواب ابن سلام: الإسلام وتاريخه، دار اقرأ بيروت، 1986، ص 150.

[32] كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، مترجم، بيروت، ط3، 1983، ص29

[33] ش أ جوليان: المرجع السابق، ج2 ، ص 39.

[34] مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 432.

[35] عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص 35.

[36] مبارك الميلي، المرجع السابق، ص 433.

[37] ابن خلدون: المقدمة، المكتبة العصرية، بيروت، ط2، 1996، ص 153.

[38] ابن خلدون، العبر، مج 6، ص ص (239-240).

[39] les circoncellions أو circum cellas (الذين يحومون حول مستودعات الحبوب لسرقتها qui rodent autour des granges)

[40] ش أ جوليان: المرجع السابق، ج I، ص 297.

[41] التعليلات تختلف من مؤرخ إلى آخر حسب المذهب الذي يؤمن به كل واحد، (المذهب المادي، المثالي، العقلي، الواقعي) وما إلى ذلك من المذاهب الفلسفية.